سعد الدين محمد الأمين

شعلة الأقصى

خيال

شعلة الأقصى

محمد الأمين سعدالدين

شعلة الأقصى

اهداء

أقدّم هذا العمل إلى الوالدين الكريمين اللذين أستمدّ منهما قوّتي في هذه الحياة.

إلى إخوتي وسندي في هذه الحياة: أنس، إيهاب، آدم، والكتكوتة بلسم.

إلى الشعب الفلسطيني، لكم منّا نحن الشعب الجزائري كلّ الحب والامتنان والتقدير.

لكم جميعًا، أقدّم هذا العمل محمّلًا بكلّ الحب والامتنان.

مقدمة

هذا النص ليس مجرّد سردٍ لأحداثٍ مضت قبل نكبة 1948 وما تبعها من جراح، بل هو شهادة حياة، وصوت ذاكرة، وإضاءة على جذور لا تنقطع.

"شعلة الأقصى" تحكي عن أحمد، الذي عاش طفولته في القدس، وترعرع بين أزقّة الحارات المقدسيّة حتى واجه قسوة الحرب. وعن أم أحمد، التي كانت نبع الصبر وملهمة المقاومة، تزرع في ابنها الإيمان بأنّ الوطن أغلى من الحياة. كما تحكي عن أبي إسحاق الجزائري، المهاجر المجاهد الذي جمع بين حُبّ الغربة وواجب التضحية، ليصير رفيق أحمد في الدرب ورايةً أُورثت بعد استشهاده.

هذه الصفحات محاولة لتوثيق جانبٍ من الروح الفلسطينيّة، حيث المقاومة ليست خيارًا، بل قدَرًا تتناقله الأجيال، وحيث القدس ليست مجرّد مدينة، بل هويّة لا تموت.

مدخل

في القدس، حيث تتشابك الأزقّة الضيّقة برائحة التاريخ وتتعانق المآذن مع أجراس الكنائس، ويمتزج الدعاء بصوت الأذان، هناك تبدأ الحكاية.

حكاية شاب نشأ بين جدران الأقصى وأحجار حارة المغاربة، تربّى على حبّ الأرض، وارتشف من أمّه معنى الصمود، وتعلّم من شيخه معنى الفداء.

إنّها ليست قصّة شخص واحد، بل مرآة لأمّة بأكملها، أمّة لم تقبل أن تنحني مهما اشتدّ عليها البلاء.

الفصل الأول

طفولة بين المآذن

وُلد أحمد في قلب القدس، في بيتٍ متواضع يقع عند أطراف حارة السلسلة، حيث كانت الأزقّة ضيّقة تتعرّج كخيوط الزمن، وتفوح منها رائحة الخبز الطازج كل صباح. كان صوته الأوّل في الدنيا يتزامن مع صوت الأذان من المسجد الأقصى، وكأنّ روحه قد رُبطت بالمكان منذ البداية.

كانت شمس القدس تُشرق على حجارة أزقّتها القديمة، تُلوّن القباب بالذهب، وترسل أشعّتها على أحجار الحارات الضيّقة حيث يلعب الأطفال.
في ذلك الصباح كان أحمد يركض حافي القدمين بين قوسٍ وآخر، يلاحق الكرة التي صنعها من خرقةٍ قديمة، بينما تعلو قهقهاته لتتردّد بين جدران حارة السلسلة المؤدّية إلى المسجد الأقصى.

لم يكن أحمد طفلًا عاديًّا؛ كان قلبه معلّقًا بالأذان، يرفع رأسه نحو المآذن كلّما سمع صوت المؤذّن وهو يصدح:
"الله أكبر... الله أكبر"

فقد كان يترك لعبه فجأة، ويجري مسرعًا نحو باب المسجد، فيدخل خلف الرجال، يصفّ قدميه الصغيرتين بجانبهم، ويؤدّي الصلاة بخشوع يثير إعجاب المصلّين.

في المساء كانت أم أحمد تجلس قرب نافذة بيتها المتواضع في القدس القديمة، تغزل الصوف بينما يقترب منها ابنها ليستمع إلى حكاياتها.

قالت له بصوتٍ دافئ:

ـ "يا بُني، هذه الأرض أمانة في أعناقنا... هل ترى المسجد الأقصى؟ قبابه ليست حجارة فقط، بل روح تسكننا. إذا ضاعت القدس، ضاع كل شيء."

كان أحمد يفتح عينيه الواسعتين بدهشة، ثم يهمس لأمه قائلًا:

ـ "أمي... سأكبر وأحمي المسجد الأقصى، لن أدع أحدًا يأخذه منّا."

ابتسمت أمه ووضعت يدها على رأسه، وقالت بحزم:

"احفظ عهدك يا ولدي، فالله تعالى يسمع الوعود الصغيرة قبل الكبيرة."

وذات يوم كان يلعب مع صديقه المقرّب يوسف، يركضان في الأزقّة ويقفزان فوق الحجارة العتيقة. وكان يوسف أكثرهما جرأة، يغامر بالصعود إلى أسطح البيوت وهو يهتف:

"أنا صلاح الدين الجديد!"

فينفجر أحمد ضاحكًا وهو يردّ:
"وأنا سأكون أمير جيشه!"

غير بعيدٍ عنهما، كان يجلس الحاج سليمان، الرجل العجوز ذو اللحية البيضاء، يستند إلى عصاه عند مدخل بيته. اعتاد أن يناديهما كلّما رآهما في الطريق:

"يا أولاد... تذكّروا أن هذه الأزقّة أمانة، فكلّ حجرٍ فيها من دم شهيد."

كان لكلماته وقع السحر على أحمد، إذ كان يشعر أنّ التاريخ يتحدّث من فم هذا الشيخ.

أمّا في المساء، فكان أحمد يرافق أمّه إلى المسجد الأقصى. هناك، كان يلتقي ليلى، الطفلة الصغيرة التي لا تفارق أمّها. كانت تلعب بجوار قبة الصخرة، وتضحك بصوتٍ يبدّد صمت المكان. ذات مرّة سأل أحمد أمّه وهو يشير إلى ليلى:

"لماذا تضحك دائمًا رغم الفقر والحصار؟"

ابتسمت الأم وقالت:
"لأن ضحكتها مقاومة يا بُني، كما تكبيرات الرجال."

ومع مرور الأيام، صار قلب أحمد معلّقًا بقبة الصخرة، يتأمّل زرقتها الذهبية، ويدور حولها مع أقرانه، يحفظ تفاصيلها كما يحفظ تفاصيل وجه أمّه.
لم يكن يدري أنّ هذه الأماكن التي يلهو فيها اليوم ستتحوّل قريبًا إلى ساحات دمٍ ونار، وأنّ عهده الطفولي سيتحوّل إلى قدرٍ لا مفرّ منه.

الفصل الثاني

ريح الحرب

لم يكن عام 1948 عامًا عاديًا، فالقدس التي اعتاد أحمد أن يسمع فيها ضحكات الأطفال ونداءات الباعة في الأسواق، تحوّلت إلى مدينة تترقّب الخطر.

في الليل، كانت أصوات الرصاص تتردّد بين الأزقّة فيرتجف قلب الصغار، وتُغلق الأبواب الخشبيّة بإحكام. أمّا النهار فكان مشوبًا بقلقٍ خفيّ؛ رجال يحملون البنادق على أكتافهم، ونساء يخبزن الخبز على عجل كأنّهن يعلمن أنّ الغد لن يكون مثل الأمس.

جلس أحمد قرب أمّه، وقد بدا عليه الاضطراب وقال بصوتٍ خافت:

ـ "أمي، هل صحيح أنّ اليهود يقتربون من القدس؟"

وضعت أمّه يدها على قلبها وقالت بثبات:

"نعم يا بُني، لكن القدس ليست وحدها، فيها رجال سيقفون في وجههم، وأنت حين تكبر قليلًا ستكون واحدًا منهم."

لم تحتج أم أحمد أن تدفعه إلى الجهاد، فقد كان قلبه مشتعلاً منذ طفولته.

وذات يوم ذهب للركض مع يوسف في الأزقّة، لكن هذه المرّة لم يكن سباقًا في اللعب، بل سباقًا من أجل النجاة.

رأى ليلى تبكي وهي تتشبّث بثوب أمّها، بينما بيتها يحترق خلفها. اقترب منها ليساعدها، لكن أمّها صاحت:

"اهربوا يا أولاد، لا وقت للبكاء!"

في أحد الأزقّة، وجدوا الحاج سليمان جالسًا أمام بيته المتهدّم، يردّد وهو ينظر إلى السماء:

"اللهم اشهد أنّني صُنت الأمانة ما استطعت."

كان المشهد محفورًا في قلب أحمد، إذ رأى لأوّل مرّة كيف يكون الصمود حتّى في لحظات الانكسار.

وفي الشهر الموالي، سمع النداء يدعو الشباب للالتحاق بالمقاومين، فخرج أحمد بخطوات سريعة، وكأنّه ينفّذ وصيّة قديمة.

في ساحة المعركة وقرب باب العمود، اجتمع عشرات الشبّان، وجوههم غضة لكن عيونهم حادّة تلمع بالغضب. وكان أحمد بينهم يحمل بندقيّة قديمة ورثها عن أحد أقربائه.

اقترب منه رجل أكبر سنًّا وهو يربّت على كتفه وقال:
"أنت صغير يا ولدي، هذه الحرب ليست لعبًا."
ابتسم أحمد، وأجاب بعزم:
"منذ أن كنت طفلًا وعدت أمّي أن أحمي الأقصى، ولن أترك وعدي يموت."

تأمّل الرجل في عينيه مليًّا ثم هزّ رأسه صامتًا، وكأنّه رأى في الصبي شيئًا أكبر من عمره.

انطلقت المعركة الأولى ضد اليهود، كانت الرصاصات تمزّق صمت القدس، والسماء تغطيها غيوم البارود. أحمد يقاتل بجانب رفاقه، لكنّه يكتشف أنّ السلاح قليل والذخيرة تنفد بسرعة؛ رأى صديقه محمود يسقط أرضًا برصاصة قنّاص، فتجمّد قلبه، لكن صرخة أحد المقاتلين معه أيقظته:

"تراجعوا! لم نعد نستطيع الصمود!"

وكان يوسف أيضًا من بين الجرحى، لكنه تمسّك بيد أحمد وقال وهو ينزف:

"لا تتراجع يا أحمد... حتى لو متُّ، قاتل من أجلي."

فانسحب أحمد مع من تبقّى من رفاقه، يلهثون بين أزقّة الحجارة، بينما أصوات الانفجارات تتعالى من خلفهم.

حين هدأ الليل وتوقّف القتال بين الطرفين، وجد أحمد نفسه عند أعتاب قبة الصخرة. دخلها وهو يجرّ خطواته المرهقة، وجلس تحت القبة الذهبية، الدموع تسيل على خديه والشعور بالهزيمة يثقل صدره. رفع رأسه نحو السقف المزخرف وقال بصوتٍ مجروح:
"يا رب، لم نستطع حمايتها اليوم، لكن أقسمت عليك أن تجعل هزيمتي هذه بدايةً لنصرٍ قادم."

ظلّ جالسًا هناك حتى بزغ الفجر، وعيناه مثبّتتان على محراب قبة الصخرة، وكأنّه يستمدّ منها القوة التي يحتاجها

ليقف من جديد. كانت تلك الليلة بداية تحوّل أحمد من فتى حالم إلى رجلٍ يعرف أن طريقه لن يكون مفروشًا بالزهور، بل بالشهداء والتضحية والدماء.

الفصل الثالث

في حارة المغاربة

في ليلة باردة، وبين أزقّة حارة المغاربة، كان أحمد يجرّ خطاه المثقلة بالهزيمة حتى وصل إلى حائط البراق.

هناك امتزجت دموع المصلّين مع صدى التكبير، ورأى في الحجارة ذاكرةً تصرخ ألا تُنسى.

وقف يتأمّل، حتى سمع صوتًا قويًا لكن دافئًا يخاطبه:

أبو إسحاق: "من أي البلاد أنت يا بني؟"
أحمد: "من القدس... وُلدت هنا وكبرت بين أزقّتها."
أبو إسحاق (مبتسمًا): "مبارك لك، فالأرض تعرف أبناءها."

أحمد: "ومن أنت؟"
أبو إسحاق: "أنا أبو إسحاق الجزائري من أحفاد الشيخ بومدين الغوثي، وهو أحد شيوخ تلمسان بالجزائر الذين قادوا الجهاد مع صلاح الدين الأيوبي لتحرير القدس من الصليبيين. وبعد أن احتل المستعمر الفرنسي الجزائر تركت أهلي وأصدقائي، أتيت إلى هنا لأن معركة القدس هي معركة الجزائر ومعركة كل المسلمين."

بعدها خفّض أحمد رأسه وقال بمرارة:
أحمد: "أي بركة؟ هُزمنا يا عمّي، فقدنا إخوتنا وأرضنا... أمي كانت تقول إن القدس لا تسقط، لكنّي أشعر أننا سقطنا قبلها."

أشرق وجه أبو إسحاق فجأة، وكأنّه وجد مفتاح الروح التي يبحث عنها. جلس بجانب أحمد وقال:

أبو إسحاق: "أمّك قالت الحقّ، يا بني. الأمهات لا يُخطئن حين يتكلّمن عن الأرض. في الجزائر كانت أمي تقول لي: 'إن فقدتَ الأرض فقدتَ نفسك.' وكنا نعود للقتال كلما تذكّرنا كلماتهنّ."

أحمد (بصوت متهدّج): "أمي علّمتني أن الأقصى ليس حجارة، بل دمٌ يسري في عروقنا. قالت لي يوم رحلت إلى الحرب: 'إذا عدتَ فعد بكرامة، وإن متّ فمتْ بشرف.'"

مدّ أبو إسحاق يده وربّت على كتف أحمد بحنان:

أبو إسحاق: "تلك الكلمات وحدها تكفي لتجعل منك قائدًا. الأمهات يا أحمد هنّ أول الجند في كل معركة؛ صوتُهنّ يسبق الرصاص، ودموعُهنّ تشحذ السيوف."

رفع أحمد رأسه لأول مرة منذ زمن، والدموع تلمع في عينيه لكن قلبه ينبض بقوّة جديدة.

أحمد (بحزم): "أعدك يا أبا إسحاق... لن أخون وصيّة أمي. علّمْني كيف أحمل السلاح، وسأقاتل حتى آخر نفس."
أبو إسحاق (بابتسامة عميقة): "ستتعلّم، لكن تذكّر: الأم هي أول مدرسة، والقدس هي آخر امتحان."

وبين أذان الفجر الذي انطلق من المسجد الأقصى، وحجارة البراق التي شهدت الحوار، وُلدت في قلب أحمد شعلة جديدة... شعلة سترافقه حتى النهاية.

الفصل الرابع

المعركة الثانية

لم يمضِ وقتٌ طويل حتى عادت رائحة الحرب تخنق هواء القدس.

اليهود يحاولون التمدد من جديد، يهاجمون الأحياء ويستهدفون المسجد الأقصى وحائط البراق حيث يدّعون ملكيته.

لكن هذه المرة لم يكن أحمد ذاك الفتى المرهق بالهزيمة. لقد تمرّن مع أبو إسحاق وتعلّم منه أن السلاح الأهم هو الصبر والإيمان.

في ليلةٍ باردة من ليالي رمضان، اجتمع المقاومون في باحة صغيرة بحارة المغاربة.
الرجال يحملون البنادق القديمة، والنساء يوزّعن عليهم الخبز والماء.

وقف أبو إسحاق في وسط الحلقة، وصوته يجلجل:

– "يا رجال... هذه ليست حربًا على حجارة، بل حرب على دينكم وأعراضكم. القدس أمانة في أعناقنا جميعًا. إنهم يريدون أن يطفئوا نور الله... ولكن والله لن يقدروا."

ثم نظر إلى أحمد وقال أمام الجميع:

– "هذا الفتى الذي ترونه قاتلًا في المعركة الماضية، رأى رفاقه يسقطون، لكنه لم ينكسر. اليوم سيكون معنا... يقاتل كأنه رجل بألف."

شعر أحمد بحرارة الكلمات، فشدّ قبضته على بندقيته وهمس في قلبه: "لن أخذلك يا أبا إسحاق... ولن أخون عهد أمي."
مع طلوع الشمس، بدأ اليهود يزحفون بجيشٍ أكبر عددًا وأكثر تسليحًا. دمدمت المدافع، وتطاير الغبار في السماء، حتى بدا المشهد كأنه نهاية العالم. انطلق الرصاص يخترق الجدران، وصرخ الأطفال من بعيد، بينما الرجال ثبتوا في مواقعهم.

كان أحمد يقاتل جنبًا إلى جنب مع أبو إسحاق. تارة يختبئان خلف جدار حجري، وتارة يندفعان في الأزقّة الضيّقة ليقطعا طريق العدو. كان صوت أبو إسحاق يعلو بين زخات الرصاص:

"تذكّر يا أحمد، القدس لا تسقط ما دام بيننا قلب ينبض بها."

رصاص يخترق الهواء، وصيحات "الله أكبر" تهز الأزقّة.

وبعدها ذهب أحمد ليقود مجموعة صغيرة من الشباب، يتنقّلون بين بيوت الحارة، يطلقون النار من النوافذ، ثم يغيرون مواقعهم بسرعة.

أما أبو إسحاق فكان في المقدّمة، يواجه الجنود وجهًا لوجه، كأنه جبل لا يهتز.

صرخ أحد المقاتلين:

– "الذخيرة توشك أن تنفد!"

أجاب أحمد بحزم:

- "نقاتل بما بقي معنا... لا نحتاج رصاصًا لنخيفهم، يكفي أن يعرفوا أننا لن نترك أرضنا."

انطلقت الحجارة مع الرصاص، وارتفعت أصوات التكبير، حتى بدا أن الجدران القديمة نفسها تقاتل مع أهلها.

وسط غبار المعركة، لمح أحمد مجموعة من الجنود يحاولون التسلّل نحو بابٍ خلفي يؤدي إلى ساحة الأقصى. أشار لرفاقه وقال:

- "لن يمرّوا إلا على أجسادنا."

ركضوا نحوهم، ودار قتال عنيف بالأيدي والسكاكين بعدما نفدت الطلقات. سقط أحد الجنود، وفرّ آخرون مذعورين.

وقف أحمد يلهث، ويداه ملطختان بالتراب والدم، لكنه شعر لأول مرة أن الهزيمة القديمة لم تعد تطارده.

مع غروب الشمس كانت المعركة لم تُحسم بعد، لكن المقاومين صمدوا.

وقف أبو إسحاق على جدار حجري، صوته مبحوح لكنه قوي:
– "أيها الرجال! هذه ليست النهاية... هذه مجرد بداية الطريق. قد نخسر جولة، لكننا لن نخسر القدس ما دمنا نعيش."

اقترب منه أحمد، وعرقه يتصبب، وقال:
– "أشعر أنني وُلِدت من جديد اليوم... لم أعد ذاك الصبي الذي هرب عند أول هزيمة."

ابتسم أبو إسحاق، ووضع يده على كتفه:
– "كنت أعلم أن النار في قلبك ستشتعل. اليوم أثبتَّ أنك رجل، وغدًا... ستثبت أنك قائد."

في تلك الليلة، جلس أحمد قرب قبة الصخرة، ينظر إلى القبة الذهبية وهي تعكس ضوء القمر.
لم يكن قلبه مثقلاً كما كان في المرة السابقة... بل كان ممتلئًا بالعزم.
أدرك أن النصر ليس بعيدًا... لكنه يحتاج ثمنًا أغلى مما يتوقع.

اشتدت المعارك في القدس، ولم تعد مجرد مناوشات متقطعة.
اليهود زادوا من هجماتهم، مدعومين بالسلاح والجنود، بينما كان المقاومون يقاتلون بما توفر لهم من بنادق قديمة وحجارة.
لكن روحهم كانت أقوى من كل سلاح.

في صباحٍ غائم، دوّت الانفجارات قرب باب المغاربة.
البيوت تهتز، والنساء يصرخن، بينما الرجال يتوزعون في الأزقّة.
كان أحمد وأبو إسحاق في المقدّمة، يطلقان النار من خلف جدار حجري متصدّع.
صرخ أحمد:
– "إنهم يتقدّمون بسرعة! علينا أن نوقفهم قبل أن يصلوا إلى الأقصى!"

ابتسم أبو إسحاق بثقة وقال:
– "القدس لا تسقط يا ولدي... ما دام فينا نفس."

ثم نهض فجأة، وأطلق وابلًا من الرصاص، فأجبر الجنود اليهود على التراجع.

وبعد ليلة المعركة الأولى جلس أحمد قرب قبة الصخرة، يراقب السماء التي غطّاها الدخان. كان قلبه مثقلاً بالمسؤولية بعد الخسارة الأولى، وروحه تبحث عن بصيص من الأمل. أخذ يحدث نفسه:

"هل أستطيع أن أواجههم ثانية؟ هل سأصمد هذه المرة؟"

اقترب منه أبو إسحاق، ووضع يده على كتفه قائلاً:

"القائد الحق يا أحمد ليس من لا يخاف... بل من يعرف كيف يحوّل خوفه إلى قوة."

كان الليل ثقيلاً، والقدس كلّها تنتظر الصباح المشتعل.

مع أول ضوء للشمس، دوى الرصاص والمدافع. انطلقت المعركة الثانية أكثر عنفًا مما سبق. كان أحمد يتقدّم الصفوف، يحمل بندقيته ويصرخ:

"الله أكبر! من أجل الأقصى!"

لكن العدو كان يضغط بقوّة، والصفوف تتراجع. بدأت الشكوك تهاجم قلب أحمد، حتى كاد صوته يخفت.

وفجأة، وسط غبار المعركة، سمع صوتًا مألوفًا يهتف:

"أحمد! لن تقاتل وحدك!"

التفت بدهشة، فرأى يوسف — صديقه القديم — يقف بجانبه، وجهه شاحب من أثر الجروح السابقة، لكنه يبتسم رغم الدماء التي تخضب جبينه. صرخ أحمد مبهوتًا:

"يوسف! ظننتك لن تعود!"

فأجابه يوسف وهو يرفع بندقيته:
"قلت لك لن أتراجع... حتى لو متُّ."

كانت عودة يوسف كشرارة أعادت الروح إلى أحمد، وأحيت عزيمة الجنود من حوله.

اندفع أحمد ويوسف معًا، يقاتلان كتفًا إلى كتف. كان يوسف يصيح:

"تذكّر ألعابنا يا أحمد؟ حين كنا نركض في الأزقّة؟ اليوم سنركض نحو النصر!"

ضحك أحمد رغم الرصاص من حوله، وأحسّ أن طفولته تعود في قلب الجحيم. لكن وسط هذه اللحظة، أصيب يوسف برصاصة غادرة، فسقط بين يدي أحمد.

ركع أحمد وهو يصرخ باسمه، لكن يوسف قبض على يده بكل ما تبقّى فيه من قوّة، وقال بصوت متقطّع:

"أكمل... لا تتوقف... النصر في يدك الآن."

ثم أغمض عينيه، وابتسم ابتسامة صغيرة كأنّه وجد سلامه.

وفي خضمّ الحزن، وقع أبو إسحاق هو الآخر مضرجًا بدمائه. نادا أحمد بصوت متقطّع:

"أحمد... الراية... خذها... أنت القائد الآن."

ارتجف قلب أحمد وهو يرى أقرب الناس إليه – يوسف وأبا إسحاق – يسقطان واحدًا تلو الآخر. شعر للحظة أن الدنيا كلها تنطفئ، لكن صدى أصواتهم ظل يرنّ في أذنه: "أكمل... أنت القائد."

نهض أحمد، رفع الراية الملطخة بالدماء عاليًا، وصاح بصوت دوّى في الأفق:

"يا رجال! لا تتركوا دماءهم تذهب هدرًا! خلفي... من أجل القدس!"

انطلق الجنود خلفه كالسيل الجارف. أصبح أحمد في مقدمة الصفوف، يقاتل كمن تحوّل إلى أسطورة. الرصاص ينهال، لكنه يتقدّم غير مبالٍ، يشعر أن دموعه صارت نارًا، وأن الخوف انقلب إلى شجاعة.

ومع غروب الشمس، انسحب العدو مهزومًا، تاركًا أسلحته وجرحى صفوفه. كانت صرخات "الله أكبر" تملأ الأقصى والقدس كلها.

وقف أحمد فوق أنقاض المعركة، يرفع الراية، وعيناه غارقتان في الدموع. همس وهو ينظر إلى جسدي يوسف وأبي إسحاق:

"لن أموت قبلكما... سأكمل الطريق... أنتما الشعلة، وأنا الحارس."

ارتفع صراخ التكبير في أزقّة الحارة، فقد عرف الرجال أن قائدهم استُشهد.
لكن أحمد لم يسمح للحزن أن يشلّه.
نهض، دموعه لم تجف بعد، ورفع بندقية أبي إسحاق عاليًا وصاح بصوت اهتزّت له الجدران:
– "أيها الرجال! أبو إسحاق لم يمت... هو معنا بروحه! هيا نقاتل... حتى آخر قطرة دم!"

اشتعلت الحارة بصيحات "الله أكبر"، وكأن استشهاد أبي إسحاق نفخ في القلوب نارًا جديدة.
المغاربة والفلسطينيون توحّدوا أكثر من أي وقت مضى، يقاتلون صفًا واحدًا، والقدس تردد صدى أقدامهم وصيحاتهم.

في تلك الليلة، جلس أحمد قرب جثمان معلمه.
القمر كان يطل من بين الغيوم، يضيء وجه الشهيد كأنه مكلل بالنور.
وضع أحمد يده على صدره، وقال بصوت خاشع:
– "نم مطمئنًا يا أبا إسحاق... أقسم بالله أن الشعلة التي سلّمتني إياها لن تنطفئ... ولو سال دمي مع دمك."

ومنذ تلك اللحظة، وُلد أحمد من جديد. لم يعد ابن الحارة فحسب، بل صار قائد القدس والمغاربة، ورمزًا للنصر بعد الهزيمة.

الفصل الخامس

وحدة الصفوف

لم يكن النصر في المعركة الثانية نهايةَ المطاف، بل بدايةَ عهدٍ جديد. بعد أن طُردت جموعُ العدو مذعورة، جلس أحمد مع قادة المقاومة في حارة المغاربة، حيث اجتمع الشباب والكبار على صوت التكبيرات.

وقف أحمد بينهم، يحمل الراية التي تلطخت بدماءِ يوسف وأبي إسحاق، وقال بصوتٍ حازم:

"لن يكون هذا النصر عابرًا... إن لم نتحد، فسوف يعودون أقوى."

كان بين الحاضرين رجالٌ من المغاربة الذين عاشوا في القدس منذ زمن صلاح الدين، وأبناء الحارات الأخرى الذين قاوموا رغم قلة السلاح. لأول مرة جلسوا جميعًا على طاولةٍ واحدة بلا نزاعٍ ولا خلاف. قال شيخٌ من المغاربة بصوتٍ متهدج:
"اليوم نضع أيدينا في يدك يا أحمد... فأنت ابن هذه الأرض، وقائدها."

تأثر أحمد بالثقة التي مُنحت له، وتذكر وصيةَ أمّه حين قالت له: "الوطن لا يَحميه إلا أبناؤه." فأجاب:

"يدًا بيد، لن تبقى القدس وحيدة."

خلال الأيام التالية نظّم أحمد الجيش الجديد، قسّمه إلى وحداتٍ تحرس الأزقة والأحياء، وجعل المسجد الأقصى مركزًا للقيادة. الأطفال الذين كانوا يركضون خائفين في الأزقة صاروا يوزّعون الماء على المقاتلين، والنساء كنّ يطبخن ويغنين أهازيج الصمود. حتى جدران القدس بدت وكأنّها تنفض الغبار وتستعيد بريقها.

لكن أحمد كان يدرك في داخله أن المعركة لم تنتهِ. كان الليل يحمل معه أخبارًا عن استعداد العدو لهجومٍ جديد، وأن الهزيمة لم تجعلهم يتراجعون بل زادتهم حقدًا. ومع ذلك كانت روح أحمد أقوى من أي وقت مضى، فقد شعر أن دم يوسف وأبي إسحاق يسري في عروقه، يدفعه إلى المضي قدمًا.

في فجرٍ صامتٍ، صعد أحمد درجات المسجد الأقصى، ووقف عند باب قبة الصخرة. مدّ يده ليلامس جدرانها، كأنه يستمدّ منها القوة. ثم رفع رأسه نحو السماء وتمتم:
– "يا رب... أنت تعلم أني لست أقوى من غيري... لكنك اخترتني لهذه الأمانة، فلا تجعلني أخون دماء أستاذي ولا وصية أمي."

حين ارتفع صوت الأذان اجتمع المقاتلون في الساحة.
وقف أحمد بينهم، عيناه تقدحان عزيمة:
– "يا رجال... أبو إسحاق استُشهد، لكنه ترك لنا وصية: أن نتوحد. اليوم لن نقاتل كمغاربة وحدهم أو كفلسطينيين وحدهم... اليوم نقاتل كأُمّةٍ واحدة. الأقصى أمانة بين أيدينا... ولن نسلمها إلا على أجسادنا!"

تعالت صيحات التكبير، كأنّ الأرض نفسها تهتز:
– "الله أكبر! الله أكبر!"

الفصل السادس

الوصية والختام

جاءت المواجهة الأخيرة كعاصفةٍ خاطفة. حاولت جموعٌ من اليهود أن تعود إلى القدس تحت جنح الليل، لكن أحمد كان مستعدًا. نصب الرجال الكمائن في الأزقة، وأغلقوا الطرق المؤدية إلى الأقصى.

دارت المعركة، وكان دوي الرصاص يهزّ جدران المدينة. ومع بزوغ الفجر بدا العدو مثقلاً بالهزيمة أكثر من أي وقتٍ مضى، فانسحب مذعورًا تاركًا وراءه أسلحته وجرحاه.

وقف أحمد على أسوار القدس، يراقب غروبهم، وفي قلبه مزيج من النصر والفقد. قال بصوتٍ خافت لكن ثابت:

"اليوم رحلوا... لكن الغد مجهول. القدس لم تعرف يومًا الراحة، ولن تعرفها حتى يكتمل النصر."

عاد الأهالي إلى بيوتهم، النساء فتحن نوافذهن، والأطفال عادوا يضحكون في الأزقة. بدا وكأن المدينة تنفست من جديد. ومع ذلك، كان أحمد يعرف أن هذا التنفس مؤقت، وأن الغزاة سيعودون ذات يومٍ بثياب جديدة.

دخل أحمد قبة الصخرة، المكان الذي كان ملاذ طفولته، وجلس في صمتٍ طويل. أغمض عينيه وتحدث في داخله:

"يا أمي... ما زلتُ على وصيتك."
"يا يوسف... ضحكتك ما زالت تقاتل معي."
"يا أبا إسحاق... رايتك ما زالت مرفوعة."

ثم نهض ببطء، ورفع الراية فوق رأسه. ارتفعت معها أصوات الناس في الساحات:

"الله أكبر! القدس حرة!"

لكن أحمد لم يبتسم. كان وجهه جادًا، ونظره معلّقًا بالسماء. في قلبه إحساس أن هذه الصرخة لن تكون الأخيرة، وأن التاريخ سيطلب المزيد من التضحيات.

خرج من الأقصى، والراية لا تزال بين يديه. ومع كل خطوة يخطوها، كان يشعر أن المدينة تهمس له:

"أنت لست الأخير... بعدك سيأتي الكثير."

وهكذا، لم تنتهِ الحكاية. لم تكن قصة أحمد سوى فصلٍ واحد في رواية أمةٍ كاملة. أما القدس، فظلّت الشعلة التي لا تنطفئ، تنتظر من يحملها جيلًا بعد جيل.

<u>وصية أحمد</u>

"إلى من يأتي بعدي...

لا تظنّوا أنني كنت بطلاً من حجر؛ لقد خفت وبكيت، لكنّي لم أهرب.

القدس ليست لي وحدي، ولا لكم وحدكم... إنها أمانة في أعناقنا جميعًا.

إذا ضعفت يومًا، فتذكّر أنّ تحت كلّ حجر دمًا، وتحت كلّ قبةٍ صلاة، وفي كلّ أزقة القدس صرخة شهيد.

احملوا الراية كما حملتها... وأكملوا الطريق، فإنّ الطريق لم ينتهِ بي، بل يبدأ بكم.

وصيتي لكم: لا تتركوا القدس وحيدة.

هذا النص ليس مجرد سرد لأحداثٍ مضت قبل نكبة 1948 وما تبعها من جراح، بل هو شهادةُ حياةٍ، وصوتُ ذاكرةٍ، وإضاءةٌ على جذورٍ لا تنقطع.

"شعلة الأقصى" تحكي عن أحمد الذي عاش طفولته في القدس وترعرع بين أزقة الحارات المقدسية حتى واجه قسوة الحرب. وعن أمّ أحمد، التي كانت نبعَ الصبر وملهمةَ المقاومة، تزرع في ابنها الإيمان بأن الوطن أغلى من الحياة.

كما تحكي عن أبي إسحاق الجزائري، المهاجرِ المجاهدِ، الذي جمع بين حبّ الغربة وواجبِ التضحية، ليصير رفيقَ أحمد في الدرب ورايةً أُورِثَت بعد استشهاده.

هذه الصفحات محاولةٌ لتوثيق جانبٍ من الروح الفلسطينية حيث المقاومة ليست خيارًا، بل قَدَرًا تتناقله الأجيال، وحيث القدس ليست مجرد مدينة، بل هويةٌ لا تموت.

سعد الدين محمد الأمين: كاتب جزائري.

خيال للنشر والترجمة
035865297 - 0774465958
الواتساب : 0668779826
khayaleditions@gmail.com
9 789931 231370